

المدرسة الفقهيّة المالكيّة بالقيروان نشأتها وتطورها

د. محمد الرايس

دولة تونس الشقيقة

الديار، فقصدها الناس من آفاق بعيدة، وكثر فيها الفقهاء والمحدثون والقراء والمفسرون، وسرعان ما أصبحت عاصمة بلاد المغرب السياسية والعلمية والدينية بلا منازع.

بهذا وغيره تهيأت القيروان لدور الريادة، ووصف المؤلفون القدامى منزلتها بعبارات ندية، وأساليب بليغة، من ذلك قول عبد الرحمان الأنصاري الدبّاغ عنها: (أما القيروان فهي البلد الأعظم، والمصر المخصوص بالشرف الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقطرهم الأفخر الذي أصبح لسان

أستأهل بحثي هذا بمقدمات مختصرة تبرز مكانة القيروان ووضعها قبل ظهور المذهب المالكي، ثم بعد أن أصبحت المركز الثاني للمذهب بعد المدينة المنورة.

أولاً: مكانة القيروان: تبوّأت

القيروان منزلة عالية لدى المسلمين في المشرق والمغرب، ونالت كثيراً من الاحترام والتعظيم في نفوسهم، لتأسيسها على يد الصحابة الكرام، وكونها منطلق جيوش الفتح، وقاعدة الإسلام في إفريقية والمغرب والأندلس، بالإضافة إلى تشرفها بأول مسجد بني في تلك

الدهر عن فضله يعرب، وبشرفه يغرب،
قرارة الدين والإيمان، والأرض المطهرة
من رجس الكافرين وعبادة الأوثان،
قبلتها أول قبلة رسمت في بلاد المغرب،
وسجد لله فيها سرًا وعلانية، وناهيك
بأرض كانت منازل أصحاب نبينا ﷺ
ومحط رحالهم... مصرًا مؤسسًا على
التقوى إلى يوم الدين...)

وتعتبر القيروان ثمرة طيبة ونتاجا حسنا
لجهود عقبة بن نافع وللصحابة الذين
كانوا معه، واستجابة لدعائهم، فقد طاف
بهم عقبة حول «القيروان» داعيا وهم
يؤمنون على دعائه الذي قال فيه (اللهم
املأها علما وفقها، وأعمرها بالمطيعين
والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلا لمن
كفر بك، وأعز بها الإسلام، وامنعها من
جبابرة الأرض) من كل ذلك تكون نسيج
اجتماعي راق بالقيروان سمته التزوع إلى
الخير، والوفاء بالعهد، والتخلي
عن الشبهات واجتناب المحارم).

ولا شك أن مجتمعا هذه صفته، وتلك
سمته لا بد أن يهتم بالعلوم والمعارف
الإسلامية لضبط حركته، وللمحافظة
على ما يريده لنفسه من السلامة وحسن
المنقلب، ولهذا كان اهتمام القيروانيين
مبكرا بالقرآن والحديث والتفسير
والرقائق والفقه.

وسأقتصر في هذا البحث على إبراز
دور القيروان في الحفاظ على المذهب
المالكي، ومساهمتها في نشره سليما من
التزييف والتحريف، ولكن قبل ذلك
سأبين في العنصر الموالي كيف كانت
القيروان قبل ظهور مالك؟

ثانياً: القيروان قبل ظهور

مذهب مالك: كان أهل القيروان قبل
ظهور مذهب مالك من حيث الجملة
يستمدون فقههم من علوم الرواية، حيث
تلقوا ذلك ابتداء على أيدي الصحابة
والتابعين الذين علّموهم القرآن واللغة
العربية ومبادئ الإسلام، ولقّنوهم

أحكام الدين. رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو اجتهدا منهم.

وقبل نهاية القرن الأول كثر المسلمون بأفريقية، وأشككت عليهم عدة أمور، فجمعوا مسائلهم، وأرسلوا بها إلى خالد بن أبي عمران (ت. حوالي 125هـ) ليسأل عنها التابعين في المشرق، فدون عنهم كتابا كبيرا رواه أهل القيروان، ثم أرسل عمر بن عبد العزيز التابعين العشرة سنة (99هـ) لتفقيه أهل إفريقية، فأشاعوا بالقيروان رواية علوم الكتاب والسنة، وكثر أتباعهم الذين تضافرت جهودهم مع هؤلاء العشرة على نشر العلم، فتخرج على أيديهم أفواج من العلماء...

إذن فقد كان الدين في المرحلة الأولى يؤخذ بالرواية المتعلقة بعلوم الكتاب والسنة، وفتاوي الصحابة والتابعين، فكان المغاربة في صدر الإسلام على مذهب جمهور السلف من الأئمة واعتقادهم، وهو المذهب الحق.

وعلى هذا تربى أهل القيروان، فكانوا شديدي التعلق بالنصوص، بعيدين كل البعد عن إعمال الرأي، خاصة وقد رأوا المزالق التي أدى إليها التأويل وما ساقه للبلاد من فتن وقد دخلت القيروان مذاهب أخرى، ولكنها سرعان ما اندثرت، ولم يكثر الآخذون بها مثل: مذهب أبي عمر الأوزاعي (ت. 157هـ)، وقد روى عنه بعض أهل القيروان. ومذهب سفيان الثوري (ت. 161هـ)، وقد روى عنه كثير من أهل القيروان، وسمعوا منه جامعيه الكبير والصغير، وكان بعضهم يميل إلى رأيه. أما مذهب محمد بن إدريس الشافعي (ت. 204هـ)، فكان حظه بالقيروان أكثر من سابقه حيث مال إليه مجموعة من أهلها، ويعتبر المذهب الحنفي أسبق المذاهب المشتهرة دخولا إلى القيروان، وكان هو الغالب على أهلها قبل دخول المذهب المالكي.

ثم زالت أسباب وجود المذهب الحنفي في مطلع القرن الخامس، وخاصة بعدما ألزم المعز بن باديس (407 هـ - 449م) الناس بمذهب مالك حسماً لمادة الخلاف بين المذاهب.

ثالثاً: القيروان، المركز الثاني للمذهب المالكي: لقد تلقى

أهل القيروان مذهب السلف على يد الصحابة والتابعين، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدّى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك فإنه ما إن أدخل علي بن زياد (ت. 183 هـ) الموطأ إلى إفريقية وفسّر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، حتى أقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين الأصالة والبساطة، واعتماده على الحديث، وأن صاحب هذا المذهب يدرس في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلتزم النص من الكتاب والسنة، ولا يأخذ إلاّ عن

وأول من أدخل مذهب أبي حنيفة: عبد الله بن فروخ (115-176)، فإنه دوّن عن أبي حنيفة نحو عشرة آلاف مسألة قبل أن يصنف أبو حنيفة كتبه، ودخل بها القيروان، وسمعتها منه الناس، ثم كان عبد الله بن غانم (128-190)، وقد لقي أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، يخصص يوماً في الأسبوع لتدريس كتب الأحناف رغم أنه كان مالكي المذهب؛ وبذلك شاع المذهب الحنفي وانتشر. وقد وجدت بعض المناظرات، وظهرت بعض المشاحنات بين أتباع المذهبين (المالكي والحنفي)، ولكنها تلاشت مع الزمن، بل تحولت آخر القرن الرابع إلى ألفة وتعاون، فقد قال المقدسي واصفاً القيروان في هذه الفترة: (ليس فيها غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة بلا شغب بينهم ولا عصبية، لا جرم أنّهم على نور من ربّهم، قد أقبلوا على ما يعينهم وارتفع الغلّ من قلوبهم).

ويأتي في الدرجة الثانية من التعليل ما ذهب إليه ابن خلدون: من أن رحلة أهل إفريقية كانت غالبا إلى الحجاز، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وكذلك لمناسبة البداوة بين الشعبين.

رابعاً: أعلام المدرسة

المالكية بالقيروان: تخرجت الطبقة الأولى من علماء المالكية بالقيروان على يد علي بن زياد مثل أسد الفرات والبهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم وغيرهم، ثم تسارع أهل الطبقة للأخذ مباشرة من الإمام مالك، حتى زاد الرواة عنه من أهل القيروان على الأربعين، وبذلك كثر رواة الموطأ، وانتشر علم مالك، فأقبل عليه الناس ووجدوا فيه الحصن الواقي من الاتجاهات الخارجية الخطرة التي كانت تحتاح البلاد.

ثم جاء الإمام سحنون فجمع في مدونته علم مالك وفقهه، واستشهد لمسائلها بالآثار، فأصبحت عمدة

الثقات، وبرع في السنة حتى سمي أمير المؤمنين في الحديث، وهو إلى جانب ذلك شديد الورع لا يفتي إلا بحذر شديد، وينفر من الرأي والتأويل.

وهذا ما ذهب إليه الشيخ محمد الشاذلي النيفر فإنه علل اتباع الأفاقة لمذهب مالك بأنه «مذهب بني علي حديث أهل الحجاز، وهم الصفوة والكثرة من الصحابة والتابعين... وهناك أمر آخر يجدر التنبيه إليه، وبه يكتمل هذا التعليل، وهو التقدم الزمني للمذهب المالكي على غيره من المذاهب الأخرى المشتهرة بالاعتماد على الحديث.

وبخاصة مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أحمد، فكان الخيار أمام القيروانيين محصوراً في المذهبين الحنفي والمالكي، فتجنبوا الأول لاشتهاره بالميل إلى الرأي، وأقبلوا على الثاني لاعتماده على الحديث، وموافقة ذلك ما في نفوسهم من التعطش إلى السنة.

مطلع القرن الخامس هو المذهب الوحيد بإفريقية، وهكذا أصبحت القيروان هي المركز الثاني للمذهب المالكي بعد المدينة المنورة، وقد وجد أهل إفريقية في علماء هذا المذهب المثال الصادق للالتزام بالإسلام، من التقوى والورع والقيام بالحق، فهم كإمامهم مالك يتعففون عن عطايا الأمراء، ويقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فارتفعوا في أعين الناس إلى مقام الأولياء.

وقد بلغ فقهاء المالكية بالقيروان عدّة مئات في كل طبقة، فالذين تتلمذوا على سحنون وحده زادوا على السبعمئة، وكان لأحمد بن عبد الرحمان الخولاني (ت. 432هـ) عشرون ومائة صاحب كلهم من أئمة المذهب. وعلى أيدي هؤلاء تكونت مدرسة القيروان المالكية وبرزت وسمت، وأصبحت بحق في الدرجة الثانية بعد المدينة المنورة في

المذهب، والكتاب الثاني بعد الموطأ، وقد أخذها عنه أهل إفريقية والمغرب والأندلس حتى بلغ تلاميذه نحو السبعمئة، نشروا علم مالك في هذه البلاد، قال الخشني: (ثمّ قدم سحنون بذلك المذهب، وجمع مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف، فبارك الله تعالى فيه للمسلمين، ومالت إليه الوجوه وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محي ما قبله فكان سراج القيروان).

وأقبل تلاميذ سحنون ومن بعدهم على التصنيف في المذهب، واهتموا «بالمدونة» خاصة، ما بين شارح ومختصر ومعلق، ثم جاء ابن أبي زيد القيرواني (ت. 386هـ) الملقب بمالك الصغير وعلى يديه استقرّ المذهب، فهو الذي لخص المذهب، وضمّ نشره، وذبّ عنه، ومالأت البلاد تأليفه، واستمر المذهب في نموّ حتى صار في

لَعَلَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ. [التوبة: 122]؛
وقال ﷺ: ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)).

ومن هنا نفر طلاب علوم الدين وجعلوا يقدون على منابع المعارف، وكان حظ القيروان من أولئك الوافدين حظاً عظيماً، فقد تخرج عن علمائها المئات من النوايع الذين ازدهرت بهم الحياة، وتأيّد الحق والعدل.

فمن الذين ازدانت بهم الأندلس من أولئك المتخرجين من القيروان:

- أبو سعيد عثمان بن أبي الصلت (ت. 246هـ)، وكان أول من أدخل المدونة إلى الأندلس،

- أبو القاسم أصبغ بن خليل (ت. 273هـ)،

- أحمد بن الوليد، قاضي طليطلة،

- أبو عبد الله محمد بن أحمد العتيبي (ت. 255هـ).

وغيرهم ممن تطول القائمة بتعدادهم، وتراجهم موجوده في «الديباج»،

خدمة مذهب مالك، وكانت محط أنظار الدارسين في مختلف بلاد المغرب والأندلس الذين وفدوا عليها للأخذ عن شيوخها.

وبلغت هذه المدرسة درجة عظيمة غطت على بقية العلوم التي ظهرت بالقيروان حتى ساد في الأذهان أن حذاق القيروان لا عناية لهم إلا بتحقيق الفقه، وأن إفريقية ذات ثقافة فقهية خالصة، والواقع أن مختلف العلوم قد ازدهرت بالقيروان وخاصة الحديث الذي كان وثيق الصلة بالفقه، ومادة لمعظم العلوم لدى القيروانيين.

خامساً: تزويد القيروان للأقطار الإسلامية بالعلماء: لم يزل

المسلمون في حاجة عظيمة إلى العلماء ولا يزالون كذلك ما بقي للناس دين،

وقد قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ

لِيَنْفَرُوا جُفَاءً؛ وَلَهُمْ أَزْهَرُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ

مِنْهُمْ كَآزِمَةٌ لِيَنْفَقُوا فِي الدِّينِ

وَلِيَنْفَرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

وفي «ترتيب المدارك»، وفي «جذوة المقتبس»، وفي «بغية الملتبس»، وفي «الصلة»، وتكملة «الصلة»، هذا، مع العلم أن المتخرجين على علماء القيروان لم يكونوا من الأندلس فقط، بل هناك من أهل سبته: أبو عبد الرحمان ابن العجوز، وأبو محمد ابن غالب، وخلف بن ناصر. ومن أهل المغرب: أبو علي بن أمدكثو السلجماسي.

ومن شيوخ القيروان الذين أخذ الناس عنهم بكثرة أبو عمران الفاسي (ت. 430هـ)، وأبو بكر الخولاني المعروف بحافظ المذهب (ت. 432هـ) على ما أورد ذلك الحجوي في ترجمتهما في كتابه «الفكر السامي».

وبعد،، فهذه لمحة عن «المدرسة المالكية بالقيروان»، لعلها تساعد في جلاء جوانب الفقه المالكي في القيروان التي التزمت هذا المذهب وطوّرت في إطار منهجيتها وطريقتها، وهي منهجية حافظت على صورته السنّية والأثرية الأصيلة.

وأخيرا فإنني أسأل الله تعالى أن يوفق دولة الجزائر الشقيقة في جهودها لخدمة الفقه الإسلامي من خلال وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ملاحظة: الموضوع موثق وله مراجع.

